

## الفصل السابع

تطور حركة الموالي واتساع سلطانهم وانهيار البلاد

أسفار - مرداويج - البويهيون

كان الأقاليم والآراء التي بثها الموالي في أرجاء الدولة أثر عظيم أنك جسمها فاستسلمت إلى الدعة والراحة ، وسدرت في اللهو ومات فيها كل طموح ، وكان من وراء ذلك أن نضرت قوى جيوشها وضعفت تغورها ، فطمع فيها كل طامع ، ونبتت قرون الفتن في أما كن عديدة ، وتطلع قواد الموالي إلى إعادة عروش آباؤهم تارة أخرى . وكان من أشدهم بأساً أسفار الذي دوخ الدولة العباسية ردحاً من الزمن . وكان لأسفار هذا قائد قوى الشكيمة اسمه مرداويج أراد أن ينفرد بالزعامة فشق عصا الطاعة على سيده وألب عليه قواد جيشه ، وفي عاصفة هذا العصيان قتل أسفار نخلاً الجو لمرداويج الذي تزعم حركة الموالي العسكرية وزحف بجيشه وتم له الاستيلاء على الري وطبرستان وبلاد الجبل عام ٣١٩ هـ ، ٩٣١ م ثم طالب من الخليفة المقتدر أن يعترف له في هذه البلاد فأقطعه إياها على مائة ألف درهم في كل عام . ولكن مرداويج رجل طامح لم يتركه طموحه أن يقف عند هذا الحد بل دفعه إلى التمسكير في استئصال شأفة العرب ليعيد دولة الأكاسرة . ولذلك أخذ يقلد ملوك الفرس الأقدمين بمظاهرهم ، فلبس التاج المرصع بالجواهر والياقوت ، وصنع له عرشاً من الذهب ، ومجلساً مفضضاً منطلي بالسجاد الموشى ، وصفف حوله الكراسي المذهبة ليجلس عليها عطاء المملكة ، وفكر

في فتح بغداد وتحديد الأيران ، وإرجاعه إلى سالف عهده ، وكان يرجو أن يجعل بغداد عاصمة دلسكه منها يحكم العالم جميعه ، ولكن خاب ظنه . كان هذا القائد قاسياً جباراً ينظر إلى الناس نظر من لم يدخل الإيمان قلبه ، فاستبد بهم ، وعامل الرجال والنساء معاملة العبيد . وعرض أهل همدان على السيف كأنهم كفار . فأثر ذلك تأثيراً سيئاً في الناس فتظاهر الإيرانيون أمام قصر الخليفة وقالوا : لماذا تؤدي ضريبة إلى بيت المال إذا لم تحفظ الدولة المسلمين من عوادي الظالمين .

وذهب وفد من العلماء إلى قائده في دينور يحملون القرآن ، فلما وضعه إمامهم بين يديه وسألوه أن يتق الله ويرفع السيف عن رقاب المسلمين ، غضب وأخذته العزة بالإثم فتناول القرآن وضرب به وجه الإمام وأمر أحد جنوده أن يذبحه ففعل .

وكان مرداويج هذا ما يقرب من ٥٠٠ ر٥٠ جندي من الديلم ، ٤٠٠٠ جندي من الترك وكان يقسو أيضاً على جنده فلما اشتط يوماً من الأيام على جنود الترك غضبوا عليه وحفظوها له حتى حانت فرصة فقتلوه وذبحوه في عام ٣٢٣ هـ ، ٩٣٥ م<sup>(١)</sup> غير أن ما أخطأه قصد مرداويج أصاب بعضه بنو بويه<sup>(٢)</sup> .

## البويهيون

بعث سلطان هذه الأسرة ثلاثة أخوة : هم علي والحسن وأحمد أولاد بويه . جاءوا إلى مرداويج فأكرم مشواهم ، وخالع علي الحسن وعلي ، ثم ولى عليا بلاد الكرج فلما سار إلى عمله ندم مرداويج على فعلته فأراد أن ينقض عهده ، فخالت دون ذلك الصداقة التي توثقت عراها بين علي والعميد (وزير مرداويج) بحيث أعلم علياً ما ينويه له صاحبه . فأسرع

(١) راجع ١٦ - ٧١ metz (٢) راجع دائرة المعارف الإسلامية ج ٣ ص ٢٩٧

إلى بلاد السكرج فقال الوزير مرداويج . إن الأمر جنأ متأخراً . ونخبر  
لنا أن ندعه يبدأ عمله حتى لا يتغير علينا ويشق عصا الطاعة ، وهكذا  
تمت الحيلة على مرداويج وبدأ نجم بن بويه يظهر في الأفق ثم اتسعت الشقة  
بين الإثنين وتأهب كل منهما لقتال خصمه ، وسار مرداويج وأخوه  
وشمكير على رأس جيش قوى لمقاتلة خصمهما وكاد التاريخ يكتب صفحة  
جديدة لولا مؤامرة الأتراك التي خر فيها مرداويج صريماً .

صفا الجو لآل بويه بعد هذا وشرعوا يضعون الخطط لامتداد  
السلطان وحدثت عليا نفسه أن يستولى على بغداد ثم على العراق عامة لما  
عرفه من ضعف سلطان الخليفة والتفكك والانحلال في قوى الشعب ،  
ثم صمم على الأمر وجهر أخاه الأصغر أحمد بن بويه بجيش قوى فسار  
أحمد يقصد بغداد ومر بواسطة ففتحها ثم كاتبه قواد بغداد فتقدم إليها  
ووصلها في اليوم الحادي عشر من جمادى الأولى سنة ٣٣٤ هـ والخليفة  
فيها يومئذ المستكفي بالله . فرحب به الخليفة وبايعه أحمد وحلف كل  
لصاحبه هذا بالخلافة وذلك بالسلطنة ، بل سماه الخليفة أمير الأمراء  
ولقبه بلقب معز الدولة فكان هذا اليوم يوم تحول تاريخ الخلافة العربية  
والسلطنة بل يوم الفصل في مصير الأمة . فقد تمكن بنو بويه من صولجان  
الحكم وطفقوا يلعبون بالخلفاء لعب الأطفال بالدمية يعينون هذا ويعزلون  
ذاك واستمر سلطانهم على العراق وإيران مدة غير قليلة نابت البلاد منهم  
نوائب كان لها أثر عظيم في كيانها ومستقبلها . ولعل هذه المقتطفات من  
تاريخ ابن مسكوية والردزاوري وغيرهما تعطيك صورة مصغرة مما آلت  
إليه الحالة أيام الحكم البويهى وما هو مركز الخلافة في بغداد أيام  
بنو بويه .

## أمير الأمراء معز الدولة

أحمد بن بويه

توطدت له أكناف المملكة وصار حاكماً بأمره وأجرى له الخليفة مراسم الاحترام جميعها غير أنه اشتط في حكمه وبتقض عهده ولم يسهل الخليفة أياما معدودات . فأرسل إليه رجلين من أعوانه في شهر جمادى الآخر من عام ٣٣٤ فلما دخلا عليه علا صوتهما برطانة أعجمية ظن الخليفة أنهما يريدان تقبيل يديه فدهما فجذباه وطرحاه أرضا ووضعاه عمامة في عنقه وجراه إليهما فاضطرب المجلس وشاعت الفوضى . وساق الديلمان الخليفة المستكني بالله ماشياً إل دار أمير الأمراء معز الدولة ، فاعتقل فيها ونهبت داره ولم يبق فيها شيء . وجاء في دائرة المعارف الإسلامية أن معز الدولة سمل عيني هذا الخليفة وباع بالخلافة واحداً من أولاد القندر وهو أبو القاسم الفضل وسماه المطيع (١) .

ويحدثنا ابن مسكويه أن الديلم شنغبوا في هذا العام على معز الدولة شنغبا قبيحا وكشفوه بالأسماع « وخرقوا عليه بالسفاه الكثير » فضمن إطلاق أموالهم في مدة ضربها لهم ، فاضطر إلى ضبط الناس ، واستخراج الأموال من غير وجوهها ، فأقطع قواده وخواصه ، وأتراكه ، ضياع السلطان وضياع بني شيرزاد ، وحق بيت المال في ضياع الرعية . . . . وصار أكثر السواد معلقا وزالت أيدي العمال عنه وبقى اليسير منه من المحاول فضمن ، واستغنى عن أكثر الدواوين فبطلت وبطلت أزمته وجمعت الأعمال كلها في ديوان واحد (٢) .

(١) تجارب الأمم ج ٢ ص ٨٦ وما بعدها . راجع دائرة المعارف الإسلامية . المقرئ

ج ٤ ص ١٨١ .

(٢) تجارب الأمم ج ٢ ص ٦٦

ومن ذلك أيضا أنه أقطع أكثر أعمال السواد على حال خرابه  
ونقصان ارتفاعه وقبل عودته إلى عمارته . وساعده على عمله هذا  
وزراؤه فساحوا المقطعين وقبوا منهم الرشا ، وأخذوا المصانع في  
البعوض ، وقبوا الشفاعات في البعض ، فحصلت الاقطاعات لهم بغير  
متفاوتة فلما أنت السنون وعمرت النواحي وزاد الارتفاع في بعضها  
بزيادة الغلات ونقص بعضها بانحطاط الأسعار وذلك أن الوقت الذي  
أقطع فيه الجند الاقطاعات كان السعر مفرط الغلاء للقطط الذي ذكرناه  
فتمسك الراجحون بما حصل في أيديهم من اقطاعاتهم ولم يمكن الاستقصاء  
عليهم في العبرة . ورد الخاسرون اقطاعاتهم فعوضوا عنها وتمت لهم  
نقائضها ، واتسع الخرق حتى صار الرسم جباريا بأن يخرب الجند اقطاعاتهم  
ثم يردوها ، ويعتاضوا عنها من حيث يختارون ويتوصلون إلى حصول  
الفضل والفوز بالربح ، وقلدت الاقطاعات المترجعة من كان غرضه تناول  
ما يجده فيها ورفع الحساب ببعضه وترك الشروع في عمارتها ، ثم صار  
المقطعون يعودون إلى تلك الاقطاعات ، وقد اختلط بعضها ببعض  
فيستقطعونها بالموجود بعد تناهيها في الاضمحلال والانحطاط . وكانت  
الأصول تذب على مر السنين ودرست العبر القديمة وفسدت المشارب ،  
وبطلت المصالح ، وأنت الجوائح على الفناء ، ورقبت أحوالهم فن بين  
هارب جال وبين مظلوم صابر لا ينصف ، وبين مستريح إلى تسليم ضيعته  
إلى المقطع ليأمن شره ويوافقه . فبطلت العمارات وأغلقت الدواوين  
وأحى أثر الكتابة والعمالة ومات من كان يحسنها ونشأ قوم لا يعرفونها  
ومتى تولى أحدهم شيئا كان فيه دخيلا متجلفا . واقتصر المقطعون على  
تدبير نواحيهم بغلبانهم ووكلائهم فلا يضبطون ما يجري على أيديهم  
ولا يهتمون إلى وجه تسمير ومصالحة ، ويقطعون أموالهم بضروب الإفساد .  
واعتاض أصحابهم مما يذهب من أموالهم بمصادرتهم . وبالخيف على  
معاملهم وانصرف عمال المصالح عنها لخروج الأعمال عن يد السلطان

(الغليظة) ووقع الاقتصار في عملها على أن يقدر ما يحتاج إليه ، ويقسط على المنتظمين تسيطات يتقاعدون بها وبآدائها ، وإن أدومها رقت الحياة فيها فلم تنصرف إلى وجوهها وقل حفل الناظرين بالحوادث تعويلا على أخذ ما صنفا وترك ما كدر والرجوع على السلطان بالمطالبة ورد ما تخرب على أيديهم من الأقطاعات ، وفرض تدبير كل ناحية إلى بعض الوجوه من خواص الديلم ، فاتخذة سكنا وطعمة والتحف عليهم المتصرفون الخونة وصار غرض أسدهم الترجية والتمشية والدفع من سنة إلى سنة وعقدت النواحي الخارجة عن الأقطاعات على طبقتين من الناس أحدهما أكبر القواد والجند ، والآخري أصحاب الدرايع والمتصرفون ، فأما القواد فإنهم حرصوا على جمع الأموال وحياسة الأرباح ودعوى المظالم والتماس الخطائط ، فإن استقصى عليهم صاروا أعداءهم ، ولما كثرت أموالهم وانفتحت بهم الفتوق خرج منهم الخوارج ، وإن سوحوا استشرى طمعهم ولم يقفوا منه عند غاية .

أما أصحاب الدرايع فكانوا أهدي من الجند إلى تفريم السلطان والحيلة عليه في كسب الأموال ونظر بعضهم إلى بعض فيما تجرى عليه معاملاتهم وبدلوا المرافق واعتصموا بالوسائل ووجب أن يجمع الناس حكم واحد . وتوالت السنون عليهم فتفردوا بنواحيهم وخلو بمعاميلهم فن مستضعف يصادر ويغير رسمه وتنقص معاملته على قدر حاله وماله ، ومن مانع جانبه فيخف عند الرسوم ويرتفق على ذلك منه بالأموال ويتخذ الضامن عضداً في شدائده وعند مناظرة سلطانه ، ويصطلم المستضعفين ، فبطل أن ترفع إلى الدواوين جماعة ، أو تعمل لعمل مؤامرة ، أو يسمع لأحد ظلامة ، أو يقبل من كاتب نصيحة ، واقتصد في محاسبة الضعفاء على ذكر أصول العقد وما صح منه وما بقى من غير تفتيش عما عوملت به الرعية وأجريت عليه أحوالها من جور أو نصفة

عن غير أشرف على احتراس من الخراب أو خراب يعاد إلى العماره ،  
وجبايات تحدث على غير رسم ، ومصادرات ترفع على محض الظلم ،  
وأضافات إلى الارتفاعات ليست بعبارة وحسابات في النفقات لا حقيقتها  
لشيء منها ، ومتى تكلم كاتب من الكتاب في شيء من ذلك وكان ذا حال  
ضمن ونسكب واجتبيح وقتل وباعه السلطان بالتطفيف ، وإن كان ذا فاقة  
وخلة أرضى باليسير فأنقلب وصار عوناً للخصم ولم يكن بذلك بلوم لأن  
سلطانه لا يحميه إذا خاف ولا ينصره إذا قال .

فهذه جملة الحال في ضياع الدخل . فأما الخراج ، فإن النفقات  
تضاعفت وسوق الدواوين أزيلت . والأزمة بطأت إلى غير ذلك من  
أمر يتسع فيها القول ويقتضى بعضها سياقة بعض فاقصرنا على الإشارة .  
ثم ركب معز الدولة الهوى في أمور غلبانه فتوسع في اقتطاعاتهم  
وزياداتهم ، وأسرف في تمويلهم ، فتعذر عليه أن يدخر ذخيرة لنوابه  
أو أن يستفضل شيئاً من ارتفاع ولم تزل مؤتمه تزيد وموارده تنقص  
حتى حصل عليه عجز لم يكن واقفاً على حده منه ، بل يتضاعف تضاعفاً  
متفاقماً وأدى ذلك على مر السنين إلى الاخلال بالديلم فيما يستحقون من  
أموالهم . وداخلتهم المنافسة للأتراك من أجل حسن أحوالهم . وقادت  
الضرورة إلى ارتباط الأتراك وزيادة تقربهم والاستظهار بهم على الديلم ،  
وبحسب انصراف العناية إلى هؤلاء ووقوع التقصير في أمور أولئك  
فسدت السيات وفسد الفريقان ، أما الأتراك فبالطمع والضاووة ،  
وأما الديلم فبالضر والمسكنة واشربوا إلى العتق وصارت هذه المعاملة  
لقاحاً وسبباً لوقوع ما وقع فيها مما سنذكر جملاً منه في موضعها  
إنشاء الله (١) .

هذه جملة الحال آثرت نقلها وعرضها لأنني وجدت أي تلميح  
أو إيجاز يخل إخلالا بينا في إعطاء هذه الصورة الواضحة المبينة للحال  
التي كان عليها الزمن أيام معز الدولة الذي نقض العهد وملك زمام  
السلطان بيده .

ولقد كان هذا المعز قويا خشنا قاسيا وثب على الخليفة ولم يرع  
إلا ولا ذمة وكان إلى جانب ذلك ضعيفا جزوعا إذا اشتد عليه المرض  
بكي وندب على نفسه ، وكان سريع الغضب ، بذىء اللسان يشتم وجوه  
الناس ويسب وزراءه إذا أخذه الغضب ، وقد أمر أن يكتب على مساجد  
بغداد سنة إحدى وخمسين وثلثمائة ما يسب به صحابة رسول الله وكان  
الناس يحكونها إذا جن الليل<sup>(١)</sup> وفي سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة عاشر  
المحرم أمر أن تغلق الأسواق ويقف القصابون عن الذبح ولا يطبخ  
الطباخون وأن يظهر الناس خارج المدينة وأن يخرج النساء منشورات  
الشعور مسودات الوجوه قد شققن ثيابهن يدرن بالبلد بالنواضح . وفي  
اليوم الثامن عشر من ذى الحجة في هذا العام نفسه أمر معز الدولة أن يعم  
السرور باظهار الزينة وأن تضرب الخيام وتعلق السجاجيد وتعرض  
الأشياء الثمينة ويلعب بالطبول والأبواق وأن تشعل النيران في مقر  
صاحب الشرطة وقد ذبحت الذبائح في الصباح الباكر وذهبت الوفود  
تزور مقبرة قريش .

### بختيار «عز الدولة»

وما آلت إليه الحالة في أيامه

كان وزراء هذا الأمير همّة أحدهم في تناول شهواته والوصول  
إلى لذاته ، أما الأمير فقد كان متشاغلا بالصيد واللهو عن جميع مهام

المملكة نخرج إليه أهل بغداد وهو بالكوفة وأنكروا عليه اشتغاله  
عن مصالح المسلمين (١) .

وأما الخليفة فقد أصبح لا حول له ولا قوة كما يتبين من الرسائل  
بينه وبين عز الدولة حين كتب إليه الخليفة يطلب منه مالا يقوم به في الغزو  
فأجابه الخليفة المطيع لله : إن الغزو يلزمني إذا كانت الدنيا في يدي وإلى  
تدبير الأموال والرجال ، وأما الآن وليس لي منها إلا القوت القاصر  
عن كفاي ، وهو في أيديكم ، وأيدي أصحاب الأطراف ، فما يلزمني غزو  
ولا حجج ، ولا شيء مما تنظر الأئمة فيه وإنما لكم مني هذا الاسم الذي  
يخطب به على منابركم تسكنون به رعاياكم ، فإن أحببتم أن أعزل اعتزلت  
عن هذا المقدار وتركتكم والأمر كله .

وتعددت المراسلات والمخاطبات حتى خرجت إلى طرف من أطراف  
الوعيد واضطر إلى التزام أربعمئة ألف درهم باع بها ثيابه ، وبعض أنقاض  
داره وشاع الخبر ببغداد بين الخاص والعام وأبناء الأقطار أن الخليفة  
صودر ، وكثرت الشائعات (٢) .

وزاد صاحب تاريخ الإسلام (٣) أنهم شددوا على المطيع لله حتى باع  
قاشه وحمل أربعمئة ألف درهم إلى بختيار ، فأنفقها هذا في أغراضه وأهمل  
الغزو ، وشاع في الألسنة أن الخليفة صودر كما شاع قبله أن القاهر بالله  
كدي يوم جمعة فانظر إلى تقلبات الدهر .

وعول أبو الفضل « وزير بختيار » فيما يحتاج إليه من مال الجند  
والاقامات التي تلزم للأتباع والحاشية على مصادرات الرعية والتجار  
والتأويل عليهم بالمحال ، وابتدأ بأهل النمة ، ثم ترقى إلى أهل الملة ، فأخذ

(١) تجارب ج ٢ ص ٣٠٢ ، ٣٠٤

(٢) تجارب ج ٢ ص ٣٠٧

(٣) هامش هذا الجزء نفسه ص ٣٠٨

أموال الشهود ووجوه البلد من أهل الثراء وبث السعاة والغازين وسماهم  
العمال ، وأجرى عليهم الأرزاق وكثر الدعاء عليه في المساجد الجامعة  
وفي الكنائس والبيع وفي المحافل والمجالس ، وزادت العامة على ما ذكرت  
من حالها في الاغارة والإقدام على النهب والحرق وأسرفت في ذلك  
حتى بطالت الأسواق وانقطعت المعاش وتعذر على أكثر الناس الوصول  
إلى ماء دجلة حتى شربوا ماء الآبار . وحصلوا في شبه حصار ، ورأى  
الوزير تسكينهم فتعذر عليه حتى أركب إليهم طائفة من الجيش فواقعوهم  
وكسروهم ، ونقصت الهيبة أكثر مما كانت عليه وركب أبو الفضل بنفسه  
لقتال العيارين وواقعهم فلم يقدر عليهم .

اعتل المطيع بالفالج فدعاه سبكتكين وطلب إليه تسليم الأمر إلى  
ولده الطائع لله وبريء من الخلافة ، وخلعها وأشهد على نفسه في يوم  
الأربعاء لثلاث عشرة خلت من ذي القعدة من سنة ثلاثمائة وثلاث وستين<sup>(١)</sup>

## عضد الدولة

### وأطاع البويهيين في الخلافة

تمكن عضد الدولة من أخذ زمام الملك بيده بعد الخلاف الطويل  
الذي نشأ بين أفراد أسرة بني بويه وبعد ذلك الفساد الذي عم المملكة ،  
وتوحدت أطراف الملك تحت صولجانه وتحرك فيه طموحه إلى أفق  
أوسع إذ أصبح يفكر في ضم لقب الخلافة إلى لقب الإمارة . فدبر أن  
يقع بينه وبين الطائع لله وصلة بابنته الكبرى ففعل ذلك وعقد العقد ،  
بمضور هذا الخليفة وبمشهد من أعيان الدولة والقضاة على صداق قدره مائة  
ألف دينار ، وبني الأمر فيه أن يرزق ولدا ذكر أمنا فيولي العهد وتصير

الخلافة في بيت نبى بويه ويصير الملك والخلافة مشتملين على الدولة الديلمية<sup>(١)</sup>. ولكنّه قدر فضحكته من تقديره الأقدار وتطورت أمور الدولة وأحوالها إلى ما سنذكره .

## بهاء الدولة

### وخلع الطائع لله

مشى بهاء الدولة بين جماعة من خواصه إلى الطائع لله فلما وصل إليه وجده جالسا في الرواق متقلداً سيفه ولما قرب منه قبل الأرض بين يديه وجلس على كرسي . ثم تقدم أصحابه فجدبوا الخليفة بجائل سيفه من سريره وتكاثر عليه الديلم فنقوه في كساء وحمل وأصعد إلى دار المملكة فاضطرب حبل الأمن وقدر أكثر الجند أن القبض على بهاء الدولة ، فوقعوا في النهب وشلح من حضر من الأشراف والعدول . . .

ولما أنصرف بهاء الدولة إلى داره أظهر أمر الخليفة القادر بالله أبي العباس أحمد بن اسحق بن المقتدر بالله ، ونادى بشعاره في البلد وكتب على الطائع كتاباً بالخلع وسلم الأمر إلى القادر بالله وشهد الشهود فيه عليه ، وكانت خلافة الطائع سبع عشرة سنة وثمانية أشهر وخمسة أيام ، وانحدر إلى حضرة القادر بالله من خواص بهاء الدولة من يهنته بالخلافة ويصعد في خدمته إلى مدينة السلام . وشغب الديلم والآتراك ، يطالبون برسم البيعة وبرزوا إلى ظاهر بغداد وترددت الرسل منهم إلى بهاء الدولة ومنعوا من الخطبة للقادر ثم أرضوهم فسكتوا . وحول من دار الخلافة جميع ما فيها حتى الخشب الساج والرغام ثم أبيحت للخاصة والعامة . فقلعت

(١) تجارب ج ٢ ص ٤١٤ .

شبايبكها<sup>(١)</sup> وكانت نهاية الطائع أن حمل إلى القادر فأكرم مشواه وبقي عنده حتى مات . ويقول الرذراوري فأما شرح ما جرت عليه الحال يوم القبض على الطائع فلم تذكره ، إذ لا سياسة فيه فتحكى ولا فضيلة فتروى إلا أبياناً للرضى أبي الحسن الموسوي رحمه الله ، فإنه كان في جملة من حضر ، فلما أحس بالفتنة أخذ بالحزم وبأدر بالخروج من الدار ، وتلوم من تلوم من الأمثال وسلبت ثيابهم وسلم هو فقال :

أعجب لمسكة نفسى بعد ما رميت	من النوائب بالابكار والعون
ومن نجاتى يوم الدار حين هوى	غيرى ولم أخل من حزم ينجيني
مرقت منها مروق النجم منكدرآ	وقد تلاقمت مصاريع الردى دونى
وكنت أول طلاع ثنيتها	ومن ورائى شر غير مأمون
من بعد ما كان رب الملك مبتسما	إلى أدنيه فى النجوى ويدننى
أمسيت أرحم من أصبحت أخطه	لقد تقارب بين العز والهون
ومنظر كان بالسراء يضحكنى	ياقرب ما عاد بالضراء يبكينى
هيئات أغتر بالسلطان ثانية	قد ضل ولاج أبواب السلاطين

## انهيار بغداد

فى وسط هذه الفوضى وفى هذه الاستهانة بالتقاليد والنظم والشرائع مما بعثته هذه الأسرة ، أخذ نجم عاصمة الخلافة يحنج إلى الأفول وصوح زهر العراق الاقتصادى وتبدلت حضرتة الزاهية إلى قاع بلقع ورمال سافية وتحولت أنهار الوادى التى كانت تتدفق بالخير والبركة وتمتد امتداد الشرايين فى جسم الشباب الحى إلى أودية غائرة وعيون مطموسة فأقفرت الجيوب وشاع الفقر وتفككت عرى الأخلاق وفشتت الجرائم وتمزقت

أوصال الأمة في وحدتها الروحية وشاع الانشقاق في الصفوف بما فشا من مذاهب الاعتزال بالعراق وخراسان وما وراء النهر ، وقويت دعوة الباطنية بأفريقية وبلاد المغرب ، وبشوا دعواتهم بأرض مصر ، فاستجاب لهم خلق كبير ، ثم ملكوها سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، وبعثوا بعساكرهم إلى الشام ، فانتشرت الفرق في عامة بلاد المغرب ومصر والشام وديار بكر والكوفة والبصرة وجميع العراق وبلاد خراسان وما وراء النهر مع بلاد الحجاز واليمن والبحرين ، وتطاحت هذه الفرق طحان الرحي ، وكان أشهر هذه الفرق القدرية والمعتزلة والسكرامية والقرامطة والباطنية (١).

ويقول ابن مسكويه : إن سبب انهيار بغداد يعود إلى العصبية وهو أن حزبين كانا يتنازعان السلطان ، بختيار والديلم من جهة وسبكتكين والأتراك من جهة أخرى ، وكل من الفريقين ينتمي إلى مذهب من المذاهب الإسلامية فأدى ذلك إلى صراع كانت نتيجته انهيار عاصمة الخلافة. هكذا كانت نتيجة ذلك الصراع العنيف التي أوضحنا بواعثه وأشرنا إلى عناصره وبيننا مراميه وغاياته . مما كان له بالغ الأثر على هذا الشرق الأوسط في حضارته وسلطانه .

أصبحت الأمة مشحنة الجراح تنوء بالبدع والفتن والإحس ، وقد تناثرت أطراف تلك الإمبراطورية المترامية تتناهبها الآراء والمؤامرات ويعلو في آفاقها الشغب وهي تميل إلى الانهيار ركناً بعد ركن تفتك فيها تلك العلل التي أنتجتها تعبئة الموالى في حركاتهم فيما فصلنا فيه البحث قبلاً فقد كانت هذه العلل كمثل دودة الخشب تأكل في مجتمع هذه الأمة وتنخر فيه ، تنتقل من منطقة إلى أخرى كلما ساعدتها الطبيعة وهيأت لها رطوبة تعبت في دائرتها .

وفي هذه الفترة المضطربة من أيام الخلافة نبطت في ما وراء النهر قوة جديدة في قبيلة من قبائل الترك تدعى السلاجقة ، قوى شأنها حين تولى زعامتها طغرل بك الذي التحم بالغزنويين واستولى على بلادهم وكتب بذلك إلى الخليفة القائم بأمر الله طالباً منه أن يقره على ما فعل ويأذن له بالحكم فيما استولى عليه فأجاب الخليفة إلى ما طلب .

نظر الخليفة إلى ما وصلت إليه البلاد من سوء التدبير والتعمير وشهد الفوضى تنتشر والأمن يضطرب والسيد البويهى فيروز خسرو الملقب بالملك الرحيم قد أثقلت كاهله هذه الفوضى المنتشرة في جميع نواحي الحياة ، وصار لا ينهض بها ولا يقدر على تدبيرها ، حتى أخذ يمالئ من الأتراك يضطهدونه ويضطهدون الخليفة ، فخف طغرل بجيشه ودخل بغداد عام ٤٤٧ هـ ١٠٥٥ م وألقى القبض على الملك الرحيم آخر البويهيين الذين تعاقب منهم على السلطان في بغداد اثنا عشر رجلاً بين ملقب بملك وملقب بسطان وبذلك انتهت سلطتهم وبدأت سلطة جديدة سلطة السلاجقة . وعلى الرغم من دخول هذه القوة الجديدة في جسم الخلافة فإنها ظلت في بدئها ضعيفة لا تقوى على رد عادية ، فالفاطميون<sup>(١)</sup> في مصر وشمال أفريقيا أعلنوا خلافتهم وصار يخطب بأسمائهم على المنابر في بغداد ومكة والمدينة وأطراف البلاد ، وكادوا يستولون على العراق . فلما اشتد ساعد السلاجقة أعادوا بعضاً من عزة الخلافة وشرع الخطباء يذكرون اسم الخليفة العباسى على منابر بغداد ، واسترجعوا بلاد الشام من الدولة الفاطمية وطفق سلطان الخلافة يمتد رويداً رويداً حتى وصل مكة والمدينة وبلاد المغرب والأندلس .

ومع ذلك ظلت هذه الفئة التركية الحاكمة تتأرجح بين القوة والضعف والخلافة يهددها الصليبيون الذين ثبتت أقدامهم في الشام ،

(١) انظر ص ٥٧ .

## الخطأ والصواب

الصفحة	السمار	الخطأ	الصواب
٥	٧	تسم	تسم
٩٠	٤	مضاتها	مضاتها
١٢	١٦	القائدان	القائدان
١٣	٢٠	سلطة	سلطة
١٤	١٧	كثود لبحوره	لكثوده وبحوره
٢٠	١٤	فاسط	فاسط
٢٨	١٢	وارت	وارت
٢٩	١٠	وامادناه	وامادناه
٢٩	١٤	سعد	عمر و بن سعد
٣١	١٠	العلم	العلم
٣٣	١٢	إن المؤمنون إخوة	المؤمنون إخوة
٣٩	١٧	مزوجة	زوجة
٤٢	١	كتاب	كتب
٤٣	١٤	الأشراق	الأشراف
٥٦	١٧	وبدا تساليه	وبدا المقنع تساليه
٥٨	٢١	اشتمد	استند
٥٨	٢١	افادة	أفاده
٥٨	٢١	فهى	فهيأ
٥٩	١٧	ألهوا	ألهوا
٧١	١٧	الأقسين	الأفسين
٨٠	١٦	ذرخ	ذرخ
١٢٢	١	تقلب	تقلب
١٢٠	١٧	عيفة	عيفة
١٥٨	١١	رسالتهم	رسالتهما
١٦٠	١٢	مقصود	مقصود
١٦٠	١٨	تخير	تخير
١٦٣	٦	الجبارة	الجبارة
١٧٥	١٠	تقاورت	تقاورت
١٧٦	٨	فتا	فتاء
١٧٦	٨	حرة	شرة
٢٠٦	٧	الفوا	الفوا

والذين لم يستطع الخليفة دفع عاديتهم ، والموالي الباطنيون المعروفون بالحشاشين ينحرون في جسم الدولة يغيرون على أطرافها ويستولون على المدن والقلاع إلى أن استيقظت الخلافة العباسية من غفوتها فاستطاع المقتدي لأمر الله أن يستقل بالأمر دونهم ، ثم أتم نعمة الاستقلال من بعده الخليفة الناصر لدين الله حيث قضى على سلطانهم عام ٥٩٠ هـ تماماً .  
جلس هذا الخليفة اليقظ على كرسى الخلافة عام ٥٧٥ هـ فشرع يدبر الملك تدبير الحكيم وأعاد للخلافة مكانتها وهيبتها ، ولما اشتد ساعده شرع يساعد صلاح الدين الأيوبي في حربه مع الصليبيين وخفف الباطنيون من غلوئهم استجابة لدعوته ، وجددوا على يديه إسلامهم ، وكادت أيام العباسيين الأولى تعود ، لولا أن عين الدهر التي لا تريد لهم ذلك لم تتم فبعثت للعالم الإسلامي مصيبة من مصائب الأيام بشوء دولة للتتار في أواسط آسيا بقيادة رئيسهم جنكيز خان وأخذوا ينحفون نحو الغرب لغزو البلاد الإسلامية .

وبعد موت الناصر أخذت الخلافة تتأرجح بين القوة والضعف تارة أخرى نتيجة تغلب الموالى والمماليك على سياسة البلاط ، حتى ولى المستعصم أمور الدولة ، فازدادت البلاد اضطراباً وكثرت الفتن وماجت بغداد بالمشعوذين ، ونبتت رؤوس الناقين من الموالى ، وقلت موارد الدولة ، وصرف المستعصم جنده لقلة الموارد واقتصاداً بالنفقات .

في هذه المحنة التي كانت تضر بغداد كان المغول يجمعون جيوشهم ويتأهبون للاستيلاء على البلاد الإسلامية وعلى عاصمة الخلافة وهكذا سار هولاءكو بجيش لجب لا يبقى ولا يذر ، وقد سعى في طريقه جماعة الباطنيين الاسماعيليين الذين أتعبوا الدولة العباسية ، وانكروا قواها ، وتقدم إلى بغداد لتصفية حساب عقيدة التوحيد ، وأرسل إلى الخليفة يطلب منه الطاعة فأبى أكثر الناس ، عند ذلك صم هولاءكو أن يفتحها عنوة

فحاصرها وشدد الحصار عليها ، وجعلت عاصمة العروبة والإسلام تحتضر  
نفرج المولى مؤيد الدين محمد بن العلقمي وزير بلاط المستعصم بعد حصار  
بدأ في اليوم الثاني عشر من شهر محرم الحرام وانتهى في اليوم الثامن والعشرين  
منه لعام ٦٥٦ هـ ١٢٥٨ م وسلم مفاتيح الأبواب لأيد المغول فانحدروا  
إليها من كل حذب وصوب وأخذت أيديهم تفتك قتلا ونهباً وإحراقاً  
وقتلوا الخليفة ، واستأصلوا أهل بيته إلا ولده الصغير واعموا السيف  
في أبناء العباسيين لا يستثنون امرأة ولا طفلاً ولا شيخاً كبيراً .  
هكذا تلاشت بغداد العالم وراء الأفق ، وأسدل الستار على قوة  
الدنيا والدين .

كادت تلتهم القضية العربية عند هذا الحد لولا أن المملوك الظاهر  
بيبرس ( ١٢٦٠ - ٧٧ ) علق في ذهنه أنه لا يقوى على حمل أعباء الحكم  
في هذه الموجة المضطربة من الزمان إلا إذا استعان بسلطة روحية تعينه  
على تثبيت ملكه ، فدعا أبا القاسم كبير العباسيين الذين قدروا على الإفلات  
من يد التاتار ، فأقامه خليفة له السلطنة الروحية وللظاهر بيبرس السلطنة  
الزمنية . واستمر الخلفاء العباسيون يتمتعون بهذا المظهر حتى فتح  
السلطان سليم العثماني بلاد الشام وتوجه إلى مصر وغلب المماليك ودخل  
القاهرة فاتحاً عام ١٥١٧ . وعاد إلى الأستانة ومعه المتوكل آخر خليفة  
عباسي حيث نزل لسليم عن حق الخلافة كما يزعمون ومنذ ذلك اليوم أخذ  
آل عثمان يلقبون بالخلفاء ومع أنهم لم يكونوا من قریش فقد أطاعهم  
العالم الإسلامي الذي أنهكته فتن الأعاجم وحروب الصليبيين ، وبذلك  
أسدل آخر ستار على القضية العربية وبدأ تاريخ جديد للعالم الإسلامي  
لم يكن للعرب اليد الأولى فيه كما كانوا قبلاً قادة الأمة وحماة العقيدة .